فقه النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثاني

مراجعة اللقاء السابق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن فقِه نفسه فأحسن إليها، ونقّاها وصفّاها، فلقي ربه فنجا بنفسه.

هذا هو لقاؤنا الثاني بعنوان: فقه النفس. فيه نراجع ما ذكرنا في اللقاء الماضي، ثم نبني على ما ذكرناه.

فنبدأ أولًا بكلمة النفس.

- قيل: "إن النفس سُمِّيت نفسًا من الشيء النفيس"؛ لنفاستها وشرفها.
- أو "من تنفُّس الشيء إذا خرج"؛ لكثرة خروجها ودخولها في البدن. كما نعلم أن العبد إذا نام خرجت منه نفسه، وإذا استيقظ رجعت إليه، إذا مات خرجت خروجًا كليًّا، وإذا دُفن عادت إليه، فإذا سُئل خرجت، وإذا بُعث، رجعت إليه.

ثم بحثنا عن حقيقة هذه النفس، ما حقيقتها من جهة خلقِها؟ وفي هذه النقطة انطلقنا من حديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الذي فيه الخبر العظيم في أن ابن آدم

خِلقته لها خصوصية، وهذه الخصوصية تجعل له مكانة عند رب العالمين، فإن الله -عزّ وجلّ- يجمع الإنسان في بطن أمه، قال رسول الله: «إنَّ أحدَكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا نطفةً، ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثلَ ذلك، ثم يبعثُ اللهُ إليه ملَكًا»[1] .

فهذه الروح التي أتت من السماء هي سبب شرف هذا الإنسان ومكانته ومنزلته.

ما هي النفس إذًا؟ إن النفس اسم للروح حال اتصالها بالبدن، فأصبح لها حال مختلفة.

كيف أعرف حالها؟ وإذا كانت النفس من عالم الغيب، فكيف أستطيع أن أتكلم عنها؟ عالم الغيب خفيّ عنّا، حتى لو كان بين أضلاعنا، لكن بنور القرآن ونور السُّنة ونور الوحي عرفنا شيئًا من هذه الحقائق؛ ولذلك قال -تعالى- : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[2] .

فنحن في هذا القليل الذي جاءنا بنور الوحي نلتمس طريقنا في معرفة هذه النفس، وهذا أمر لا بد أن نؤكد عليه كلما تكلمنا في مواضيع تتصل بالنفس الإنسانية، نحن نريد أن نستضيء بنور الوحي لمعرفة هذه النفس.

---

[1] () أخرجه البخاري: (3208).

[2] () الإسراء: 85.

وقد مرّ معنا شيء من هذا النور العظيم، وعرَّفنا شيئًا من صورة هذه النفس، من ذلك هذا النص الذي فيه كلام رسولنا -صلّى الله عليه وسلّم- ودعاؤه، فقد قال -صلّى الله عليه وسلّم-: «اللهُمَّ كمَا حسَّنْتَ خلْقِي فحَسِّنْ خُلُقِي»[3]. يعني أكملت خَلقي الجسديّ في أحسن صورة، «فأَحْسِنْ خُلُقي».

وهنا يأتينا النور من كلامه -صلّى الله عليه وسلّم-، يُعلِّمنا نبينا أن نطلب من رب العالمين هذا الطلب المبنيّ على فهمنا، فأنا لي صورة بدنية خِلقية، ولي صورة نفسية خُلقية، وعندما تنظر إلى الحديث ستجد كلمة «خَلْقي» و «خُلُقي» رسمها واحد، والفرق في تشكيل الكلمتين، وهذا وراؤه نور من نور الوحي، يُبيِّن لنا أن الإنسان له خِلقة بدنية يقابلها خِلقة نفسية. وهنا لا بد من التأكيد على هذا المعنى، أنه كما أن للإنسان قوى بدنية، فإن هذه القوى البدنية يقابلها قوى نفسية.

وبالمثال يتّضح المقال، فإن الإنسان في خِلقته السوية له عينان يبصر بهما، وله أذنان يسمع بهما، يعني قوة السمع في الأذنين، وقوة البصر في العينين، وقوة البطش في اليدين، وقوة الكلام في اللسان، وقوة الانتقال في القدمين. كل جزء من هذه الأجزاء وغيرها فيه قوة،

---

[3]() أخرجه الألباني: (1307).

هذا ما نسميه بالقوة البدنية، هذا خَلْقي، وهذه قوى خَلْقي.

أما خُلُقي فهو الهيئة النفسية، كما أن هناك قوى بدنية فهناك قوى نفسية، تكاد تكون مثل القوى البدنية وأقوى منها وأعظم منها، فمثلًا قوة الكلام التي تكون باللسان، وتمكّن الإنسان من أن ينطق فيسمعه الناس، وأيضًا قوة السمع، فكما أن الإنسان يتكلم فيسمعه غيره، كذلك هو يسمع غيره. هاتان قوتان:

- قوة الكلام.
- وقوة السمع.

هذا في الخِلقة، وهناك ما يقابله في الخُلق، الناس يعلمون أنهم يحدثون أنفسهم، الإنسان لديه قوة نفسية يحدث بها نفسه، ويسمع نفسه أيضًا. فإذًا كما أن الإنسان لديه قوة بدنية في إخراج الصوت من لسانه ومن حلقه ومن أحباله الصوتية، كذلك هو عنده قوة نفسية في الكلام، وكما أنه يسمع بأذنه الكلام والأصوات، فكذلك هو يسمع بقواه النفسية صوت نفسه ويسمع صوت الحق؛ ولذلك نستطيع أن نتصور هذا المعنى بوضوح عندما يُكرّر علينا في القرآن الخبر عن أناس نفى الله -عزّ وجلّ- عنهم السمع والبصر رغم أن قواهم البدنية

فيها سمع وفيها بصر. لكن المنفي إنما هذه القوة النفسية.

الآن نؤكد على أن لدي خَلْق ظاهريّ ولدي خُلُق نفسيّ، وقوى البدن يقابلها قوى النفس، فنقول: "يا رب أنت مننت علينا، وحسّنت خلْقنا الظاهريّ، وأعطيتنا القوى الظاهرية، فحسّن خُلُقنا وقوِّ قِوانا الباطنية!" ولاحظ هذا في القرآن من نور الوحي:

رب العالمين يقول لنا في سورة يونس: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) هم يسمعون السمع الحسيّ! ثم قال: (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ)[4] إذًا هذا ليس صممًا بدنيًّا، هذا هو الصمم النفسيّ.

ومثله قوله تعالى: (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ) يعني عيونهم الخَلقية موجودة! ثم قال: (أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)[5] فِعل العمى في النفس، هذه القوة النفسية نحن نشعر بها، نشعر بأنّنا نستطيع أن نُحدِّث نفسنا ونسمعها، بل نحن نشعر أننا ننتقل من مكانٍ إلى مكان. انظر كيف أن الإنسان ينتقل من مكانٍ إلى مكان بقدميه، بسيارته، بطائرته، بأيّ أداة من الأدوات التي رزقنا الله إيّاها، وقد ينتقل الإنسان وجسده

---

[4] () يونس: 42.
[5] () يونس: 43.

باقٍ في المكان بذهنه وخياله، وهذا الشيء نشعر به. كم من المرات سمع الإنسان كلمة فنقلته إلى ماضٍ أو نقلته إلى مستقبل يتخيله، شمّ رائحة فأخذته إلى مكان آخر، بل الرُّؤى والأحلام نقلٌ لهذه النفس من مكانٍ إلى مكان.

فالإنسان كما أن عنده قوى بدنية، كذلك عنده قوى نفسية، هذه القوى النفسية هي مدار حديثنا، هي المقصد من التكليف، ومن الوحي، ومن النقاشات، أن تستعمل هذه القوى النفسية التي بها تتميز عن غيرك مما خلق الله، أن تكون هذه القوى النفسية مصدرًا لرفعتك عند الله؛ ولذلك عندما ننظر إلى قوانا البدنية ونفكر فيها ونرى أن هناك أشياءً في قوانا البدنية أو في أوضاعنا وأحوالنا في القوى البدنية لا نستطيع أن نغيرها، فهذا يجعلنا نفكر في القوى النفسية، ما الشيء الذي لا نستطيع أن نغيره؟ ومن ثَمّ في القوة البدنية هناك أشياء أستطيع أن أمرِّنها وأقوِّيها، ولو أهملتها يمكن أن تضعف وتذبل.

إذًا مثل هذا تجده في القوى النفسية؛ ولذلك تصور عندما يأتي شاب من الشباب الكُسالى ويقول لك: "أنا أريد أن أنام على الفراش طوال الوقت، أريد ساعات نومٍ أطول وأطول، لا أريد أن أنهض ولا أذهب!" يُحب

الكسل! لا يعلم المسكين أن طريحي الفراش يعانون من قُرَح الفراش -نسأل الله أن يعافيهم ويعافينا ويعافي المسلمين-، لا يعلم المسكين أن الكسل يضر ببدنه وأنه ليس في صالحه.

وهكذا تصور القوى النفسية عند شخص كسلانٍ لا ينشّط نفسه، ولا يفكر، ولا يعطي نفسه فرصة لأن يُزكّي نفسه، ولا يستفيد من سمعه ومن بصره، لا يتعلم.

إذا كنت تعرف أن الكسلان على فراشه طريح الفراش -عافى الله الجميع- يعاني ويُصاب بقُرَح الفراش، فاعلم أن هذه النفس الكسلانة بنفس الصورة بالضبط، تُعاني من آلام وقُرَح، يحتار صاحبها فيها! وإذا رأيت أولئك القوم يحركون أبدانهم، ويربّون عضلاتهم، ويستفيدون من هذه العضلات، وكما يعبرون في هذا العالم "إن هذا الشخص لديه لياقة"، هذه الفكرة التي تراها في البدن هي نفسها الفكرة التي تراها في النفس.

فإن قومًا صبروا وحبسوا أنفسهم على معالي الأمور، تجد لديهم من اللياقة النفسية وقوة الإرادة والعزم ما يجعلهم في حالٍ من الكمال النفسيّ، فهذا هو المعنى الذي ندور حوله: «اللهُمَّ كمَا حسَّنْتَ خلْقِي

فحَسِّنْ خُلُقِي» كلّما زدنا فهمًا، وفقّهنا أنفسنا، كلّما وصلنا إلى نتيجة عظيمة، وهذا معنى حديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: «كان خُلُقُه القُرآنَ»[6] يعني أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- نزل عليه هذا الوحي العظيم، نزل عليه القرآن العظيم، فكانت هيئته النفسية بكل تفاصيلها موافقة لما يرشد القرآن.

إذًا بناءً على هذا النقاش:

ما سبب اهتمامنا بفقه النفس؟

تصور أن وظيفتنا في الدنيا متصلة بفقه نفوسنا، إذا فقهناها قمنا بوظيفتنا؛ لأن الابتلاء في حقيقته لهذه النفس، ففقه النفس مقصده: معرفة الإنسان لطبيعة نفسه التي خُلِق عليها، وفهمه لمشاعره ودوافعه، وكيف يكون مُزكّيًا لها، وكيف يبتعد عن أن يكون مُدسّيًا لها.

فقه النفس وسيلة لفهم الذات وإصلاحها، وكلما اجتهدنا في ذلك ارتقينا، وساعدنا أنفسنا على تخطي العقبات. وهذا المعنى سيتبين لنا أكثر ونحن نقرأ في سورة البلد.

إذًا لماذا فقه النفس؟ نحن في اختبار، وهذا هو النجاح في الاختبار.

---

[6]() أخرجه أحمد (25813).

نحن نناقش ونحاول أن نفقه نفوسنا لنساعد أنفسنا على الإصلاح، لنزكّي أنفسنا ونصلحها، ونتحكم ما استطعنا في مشاعرنا وانفعالاتنا، وأن نتخذ قراراتٍ أفضل، ونحقق التوازن النفسي، ونعرف ما وظيفتنا مع أنفسنا ومع غيرنا، بتعبير آخر: لكي نواجه الضغوط.

إذًا سبب دراستنا لفقه النفس: أن نسلك الطريق المستقيم ونحن في عافية. فمعرفة النفس هي وسيلة للوصول إلى النجاة.

إذًا سنقول: كل ما نطلبه للهيئة البدنية، نطلبه للهيئة النفسية. نحن نطلب العافية للهيئة البدنية، ومثلها وأعظم منها نطلبه للهيئة النفسية، فإذا كنا نريد أن نسلم من الداء، وتكون لنا قوة عافية في أبداننا، ونريد أن نتجمّل ونتحلّى، فأضعاف هذا نريده في هيئتنا النفسية، كما نريد أن نسلم من الأمراض البدنية فنحن نريد أن نسلم من الأمراض النفسية، كما نريد أن تكون عندنا عافية بدنية فكذلك نريد أن تكون عندنا عافية نفسية، كلّما أردنا لمظاهرنا أن تكون أجمل، ونتحلّى بالحُلي، ونتحلّى بالمساحيق، فأعظم من ذلك تحلية أنفسنا.

فهذه النفس النفيسة إن طهّرها صاحبها وزكّاها؛ نمَتْ وطهُرت وعظُمت بركتها، وإن أهملها خسرها؛ فلذلك لا

بد من العناية بهذا الموضوع، وهذا الموضوع لا يمكن إلّا أن يكون مشروع العمر؛ لأنه أمر يتصل بأشياءٍ كثيرة غيبية، والإنسان نفسه التي بين جنبيه هو يكتشفها يومًا بعد يوم، يكتشفها من نور الوحي، عندما يقرؤه ويتدارسه، يكتشفها من المواقف والأحداث، عندما يحللها على أساس نور الوحي، يكتشفها عندما يعبُر من القصة والموقف إلى النتيجة الكاشفة؛ لأن القصص التي تمر علينا في حياتنا -سواء كنا نقرؤها من نور الوحي أو نمرّ بها أو نسمعها عن غيرنا- هي في حقيقتها عِبرة، عِبرة يعبر الإنسان بها الزمن ويتخطاه، يعبر بها إلى النتائج، فعندما ترى في قصة أمامك من بدايتها إلى نهايتها طمع الطامعين، وماذا يفعل بهم هذا الطمع، أو ترى حقد الحاقدين، وماذا يفعل بهم هذا الحقد؛ حينئذ هذه القصة ستكون لك عِبرة، وتعبر بك وتوصلك إلى نتيجة تكتشف بها النفس الإنسانية. عندما ترى غنيًّا شحيحًا، وترى صاحب بيت واسع تضيق نفسه! فهذه المشاهد والأحداث تعبُر بك، وتوصلك إلى نتيجة تكتشف بها الحقائق.

ومن لطيف القول، هناك بيت شعر مشهور للمتنبي -لكي نتصور العبرة- يقول فيه:

"بِعَيْنَيَّ رَأَيْتُ الذِّئْبَ يَحْلُبُ نَمْلَةً
وَيَشْرَبُ مِنْهَا رَائِبًا وَحَلِيبًا".

الآن هو أمام موقف رآه بعينيه وعبر به، وهذا البيت دائمًا يقولون عنه إنه أكذب بيتٍ وأصدق بيتٍ في نفس الوقت.

أنا ذكرت هذا المثال لكي تتصور كيف أننا نكتشف أنفسنا، ونكتشف أحوال النفس من خلال أمور: من خلال الوحي، من خلال ما نمرّ به من التجارب، من خلال ما نراه من أحداثٍ حولنا نعبر بها.

فهذا البيت الذي يقول فيه: "بعيني رأيت الذئب يحلب نملة ويشرب منها رائبًا وحليبًا" هذا موقف حصل للمتنبي، أنه رأى امرأة فقيرة تبيع حليبًا في السوق، وهذا الحليب ليس لها، وإنما كأنها أخذته من أحد من أجل أن تبيعه، وقيل إنها في الحقيقة تبيع السمك، فأقبل على المرأة رجل ثريّ يرتدي ملابس فاخرة تدل على غناه، سألها: "بكم رطل السمك؟"، أجابته المرأة باستعطاف: "بخمسة دراهم يا سيدي!"، ردّ عليها الغني باستعلاء: "بل بدرهم واحد للرّطل!"، فقالت له: "أنا امرأة فقيرة، والسمك ليس لي، بل لرجل أخذته منه لأبيعه!"، لكن الغني صمم على رأيه، فأعطته وهي

تعتقد أنها إذا أعطته ما طلبه -تقول القصة إنه طلب عشرة أرطال- فسيعطيها المال كاملًا.

فعلى عكس المُتوقَّع أن يعطيها خمسين درهمًا، رمى لها عشرة دراهم، ثم راح مُسرعًا. فأخذت المرأة تبكي وتناديه مستغيثة، وحتى أن المتنبي نفسه ناداه، لكنه تجاهل الجميع!

فهنا المتنبي خرج بهذه النتيجة، رأى الموقف وكشف هذه النفس. يقول: "بعيني رأيت الذئب يحلب نملة" شبهه بالذئب في لؤمِه وقسوته، وأنه ينهش الضعفاء، وشبّه المرأة المسكينة بالنملة في ضعفها، فهي ضعيفة مثل النملة، وهو كبير مثل الذئب، وأيضًا الصورة أنه يحلب، كأنه يمتص قواها، ويشرب منها رائبًا وحليبًا.

المقصود بهذا المثال: أننا في مواقف كثيرة نكتشف أنفسنا من خلال صُور تمر علينا، فنعبر من هذه الصورة إلى نتيجة مهمة، نتيجة تكشف لنا النفس الإنسانية. يعني لن نقول: "هذا الشخص بهذه الصورة!" بل نقول: "هذه النفس إذًا لم تُزكِّيها، ستصبح صفتها كذا." مثلًا في هذا الموقف الذي قال فيه المتنبي هذا البيت، تستطيع أن تقول: "إن هذه النفس شَرِهة." حتى

وإن كانت تملك، لكنها لا تمانع من أن تطغى وتفتري وتأخذ أكثر وتعطي أقل، إذا لم تزكِّها.

فنحن نعبر إلى حقائق النفس من خلال هذا الذي يحصل حولنا، إذًا لابد أن أتصور أن الأمر طويل بطول الحياة.

ماذا أحتاج لمشروع فقه النفس؟

هذا أمر في غاية الأهمية، يجب أن نفكر فيه ونهتم به؛ لأجل أن نصل إلى الحقيقة. أنا أريد أن أفقه نفسي، لاحظوا أن هذا الفقه درجة عظيمة، يجب أن أعرف نفسي التي بين جنبيّ، لا يصحّ أن تكون بين جنبيّ ولا أعرفها، وأكون أجهل الناس بها!

لا زلنا نسأل: هذا مشروع العمر ماذا عليّ أن أفعل، وما هي الخطوات التي يجب أن أفعلها؟ نحن نحتاج إلى مجموعة قناعات، ونحتاج إلى مجموعة تصرفات.

فأما القناعات: لا بد أن يكون لدينا قناعة بأننا نملك ثروة عظيمة تكشف لنا النفس وتحافظ عليها، ولا ننسَ أن هذه النفس غيب، فالكلام عنها بدون نور الوحي يعتبر تخبُّطًا. فلا بد من أن نتكلم عنها من نور الوحي.

الأخبار عن النفس نأخذها من نور الوحي، وأيضًا طريقة التعامل مع هذه النفس، والمحافظة على قواها،

واستثمار هذه القوى، هذا كله لا بد أن يكون من نور الوحي؛ ولذلك نرى الفرق الكبير بين نظرة من يستنير بنور الوحي، الذي يرى أن لهذه النفس كرامة، وعنده خطة للمحافظة على هذه الكرامة، ونظرة مَن يكلمك عن النفس من ظلمات الجهل، يحدثك عن النفس حديث من يُوحِي إليه الشيطان. فرق كبير! فنحن في البداية يجب أن نصل إلى هذه القناعة: إن هذه النفس من الغيب، ولن يُحدِّثك عن هذا الشيء الغيبيّ إلّا الوحي، وعندنا -الحمد لله- ثروة عظيمة تخبرنا عن حقائق النفس، وتخبرنا عن طريقٍ للنجاة، للاستثمار، للمحافظة، أو يمكن أن نقول: تخبرنا عن طريق للسلامة من الأمراض، وللعافية التامة، وللتجمل.

إذا وصلنا إلى هذه القناعة، فهذه هي الخطوة الأولى، وسنخطو الخطوة الثانية وهي:

التصرفات: نحن نحتاج إلى إقبالًا وتعلُّمًا وفهمًا واجتهادًا.

بعد أن اقتنعت أن لدينا ثروة، فهيَّا لاكتشافها، حيَّ على الاجتهاد في استخراج كنوزها! وكلّما أقبلت على هذه الثروة تستخرج كنوزها، كلّما عرفت الحق واستمتعت به؛ ولذلك فقه النفس ليس لقاءً نسمعه ونمرّ

عليه، وليس معلومات من باب الثقافة، وإنما هو مشروع للعمر، وثروة أقتنع بوجودها، وأُقبل عليها، وأستخرج منها خيراتها. فكلّما كنت أقرب من هذه الثروة وأكثر اهتمامًا بها كلما فقهت نفسك.

لا ننسَ أن هناك خطوتين:

الخطوة الأولى: تحصل عندي قناعة.

الخطوة الثانية: يحصل منّي اجتهاد.

كيف تفقه نفسك؟

1- من خلال معرفتك بربك، الأخبار التي أخبرك بها ربنا عن نفسه.

الآن يمكن أن تقول لي:

"هذه الثروة -التي هي الوحي- كيف جاء فيها الخبر عن الإنسان؟ أين كلمة الثروة؟"

الآيات التي بها كلام عن الإنسان مُحدّدة، أنا أذهب إلى المعجم وأستخرج كلمة "إنسان" أو كلمة "نفس" وسأجدها مُحدّدة. القضية ليست بهذه الصورة.

الثروة التي هي الوحي، هذا الشيء العظيم الذي قال فيه رب العالمين: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)[7] قال أهل العلم:

[7]() يونس: 58.

"فضل الله ورحمته هو القرآن". القرآن فضلٌ تفضّل به علينا رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وأثنى عليه، فستجد في كل جِهة منه، وفي كل خبر فيه، وفي كل حكم فيه خبر عن الإنسان، يُفقِّهك مَن هو هذا الإنسان.

في المرة الماضية ذكرنا هذا المثال وأُؤكد عليه: أن نبينا -صلّى الله عليه وسلّم- أخبرنا بأخبار عن ربنا، أخبرنا بحديث عظيم، قال لنا: «إِنَّ للَّهِ تِسعةً وتِسعينَ اسمًا مِئةً إِلَّا واحِدًا، مَن أحصاها دَخَلَ الجَنَّةَ»[8] ونحن نعرف أن أسماء الله -عزّ وجلّ- وصفاته وأفعاله ليست محدودة بالتسعة وتسعين، فالنبي يقول: «اللهمّ إني أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمتَه أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك»[9]، والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- في حديث الشفاعة قال إنه سيسجد تحت العرش: «فأستَأذِنُ على رَبِّي، فيُؤذَنُ لي، ويُلهِمُني مَحامِدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرُني الآنَ»[10] محامد الله بأسمائه وصفاته.

لماذا أُخبرنا عن تسعة وتسعين اسمًا فقط؟! هذه التسعة والتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة. وهي موجودة في الوحي نعرفها، وبقية الأسماء استأثر الله بها

---

[8]() أخرجه البخاري: (2736).
[9]() أخرجه الألباني: (108).
[10]() أخرجه البخاري: (7510).

في علم الغيب عنده، خَفِيَت علينا. الجواب: إن هذه التسعة والتسعين اسمًا -والله أعلم- في ظلّها تعيش، أنت بحاجة إليها؛ فهي معالجة لنفسك، ومداوية لجُرحك، وشافية لمرضك.

إذًا عندما تنظر للأخبار عن الله في القرآن التي جزء منها الأسماء -لأن الأخبار عن الله أوسع من الأسماء-، ستعرف أن كل خبر أخبرنا به الله عن نفسه يكشف لنا شيئًا من نفسنا، وحالة من نفسنا.

كل خبر جاء عن الله سواء كان اسمًا أو صفة أو فعلًا يكشف لنا عن نفسنا. كيف ذلك؟ عندما يكون الإنسان ضعيفًا ويخبره -عزّ وجلّ- أنه هو القوي، فالله يقول للإنسان: "أنت ضعيف، ولا حول ولا قوة لك إلّا بالله القوي." فضعف هذا الإنسان عُلِم بالتجربة، وبالأحوال، وعُلِم أيضًا بالأخبار؛ لأنه قد تأتي على الإنسان لحظة ويرى هذا الشخص عنده قوة، وهذا الشخص عنده قوة، فيصدق أن الناس عندهم مُنطلق القوة. نقول: "لا، الحقيقة أن الله هو القويّ العزيز، وقوّته وعزّته تدل على ضعفك وذُلّك، وهذه هي صفتك، ولا قوة لك في الحقيقة إلّا بالله."

الأمثلة في هذا تطول، نحن الآن نريد أن نأتي إلى إجمال الأمر.

إذًا هذه الثروة العظيمة من الأخبار عن الله في الكتاب والسُّنة -في الوحي- تخبرنا عن نفسنا، فلمّا سمّى الله نفسه بالجبّار -ومعنى أنه جبار: أنه يقصم الجبّارين، ويجبر قلب المنكسرين-، فأنت تعرف من هنا أن الإنسان قد يتجبَّر، وأن الإنسان من صفاته أن ينكسر قلبه؛ ولذلك أخبرك الله عن نفسه أنه جبّار يقصم الجبارين الذين سوّلت لهم أنفسهم أن يتجبّروا على الناس، ويجبر المنكسرين الذين تمرّ عليهم أحوال يتعرضون فيها للآلام.

إذًا أنت ما صفتك أيها الإنسان؟ يمكن أن تطغى حتى تتجبر، ويمكن أن تتعرض لشيء يكسر قلبك؛ ولذلك أنت تحتاج أن تعرف عن ربك أنه جبّار. فالأخبار عن الله تكشف لك نفسك؛ لأن الله أخبرك عن نفسه -سبحانه وتعالى- وعن أسمائه وعن صفاته وعن أفعاله بما يجعلك تقوم في الحياة بمهمتك، يقول لنا رب العالمين: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)[11]، أنت أيها الإنسان مرزوق

[11]() الذاريات: 56- 58.

ولست رازقًا، أنت فقير ولست غنيًّا، هذه صفتك أنك فقيرٌ. صفتك أنك ضعيفٌ، والله القوي. صفتك أنك عاجزٌ والله القادر.

إذًا تكتشف صفات نفسك من خلال معرفتك لربك.

2- من خلال الأوامر والنواهي.

تعرف ربنا وتعرف أمره وتعرف نهيه؛ تكون النتيجة أن تعرف نفسك. فهذا جزء مهم من الأجزاء التي يكتشف بها الإنسان نفسه.

من أشهر الأمثلة التي تكشف النفس والله صرّح لنا بها: في سورة النساء رب العالمين أخبرنا بمجموعة أوامر متصلة بالمهر، وبالنكاح، وبإحصان المرأة، نهى عن اتخاذ الأخدان -بمعنى الأخِلَّاء في السر-، مجموعة أحكام. ثمّ أخبرنا الله -عزّ وجلّ- أنه بهذه الأحكام يريد أن يبيّن لنا، وأن يهدينا سُنَن من كانوا قبلنا، وأن يتوب علينا، ثم بيّن -عزّ وجلّ- مرةً أخرى أن هذه الشريعة يريد بها الله أن يتوب علينا من أن نقع في تصرفات تسبب تشتُّتنا وتفرُّقنا، وأخبرنا أيضًا أنه يريد أن يخفّف عنّا. ثم يخبرنا أن هذه الأوامر كلها مناسبة لخِلقتنا، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[12]، فليس لرجل أن يقول: "أنا قوي أمام المرأة،

[12]() النساء: 28.

وأستطيع أن أتماسك، ولا تستطيع امرأة أن توقعني في شباكها!"، وليس لامرأة أن تقول: "أنا لا أحتاج إلى الامتثال لهذا الأمر، أنا واعية غاية الوعي، وفاهمة غاية الفهم، وعندي تجربة!" نقول لها: "قال تعالى: (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)" هذه مجموعة الأوامر إنما أتت لأن هذه صفتك، وهذه الآية التي في سورة النساء صريحة في بيان أن هذه الأوامر جاءت بسبب صفات الإنسان، هذه الآية أتت صريحة، وغيرها أتت ضِمنًا، تكشف نفسك ضِمنًا. وأي شخص يقول: "أنا قوي وأستطيع أن أفعل، ولا يستطيع أحد أن يخترق خصوصيتي" لا، أنت ما عرفت نفسك، لم تفقهها؛ لذلك تصدّيت لشيءٍ ما كان يجب عليك أن تتصدّى له.

تصوَّر هذا المعنى عندما تفكر في يوسف -عليه السلام- وتفكر في أنه استبق الباب، لم يقل: "أنا قوي وأستطيع أن أكون أمام هذه المشاكل أو أمام هذه الإغراءات، سأكون قويًّا ولا أحد يُهمُّني!" بل استبق الباب، وليس هذا فقط، بل لما اجتمع عليه النسوة، وأرادوا منه ما أرادوا، وصل به الحال إلى نهاية الخوف؛ لأنه يعرف نفسه، فقال داعيًا رب العالمين: (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)؛ لأن نفسي ضعيفة، (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[13].

إذًا تصوّر هذا من خلال الأوامر والنواهي، الأوامر والنواهي أتت مركبة تمامًا على الصفات النفسية، أتت تخاطب هذا الإنسان المخلوق بهذه الصفات.

3- من خلال ما أخبرنا به عن النفس الإنسانية مباشرة.

جاءتنا نصوص مباشرة تخبرنا عن حقائق في النفس، وتخبرنا عن صفات الإنسان، وعن حساباته وعن أوضاعه، كما سيتبين في التطبيق على سورة البلد.

4- من خلال ما قصّ علينا ربنا من قصص.

كما في نموذج سورة يوسف.

مثل هذه الأمور لا نتوقع أننا نستطيع أن نجمع كل حقائقها في مثل هذا المقام، نحن نتكلم عن مشروع العمر، لكن على الأقل نتصوّرها ونسأل الله أن يرزقنا علمًا ونسير في هذا الأمر، ونفكر ونتعلم ونقرأ؛ عسى الله أن يفتح علينا وييسر لنا وأن نكون سببًا لنجاة أنفسنا!

---

[13]() يوسف: 33-34.

التطبيق على سورة البلد

نطبق الآن على سورة البلد، ونرى من خلالها كيف يمكن أن نفقه أنفسنا، ونرى كيف أخبرنا ربنا عن النفس، وعن أحوال الإنسان، ونرى ما تيسر لبيان شيءٍ من صفات النفس الإنسانية:

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

نبتدئ أولًا بهذا الخبر العظيم من رب العالمين عن خِلقة الإنسان، فالله -عزّ وجلّ- يخبر عن أن هذا الإنسان خُلِق في كَبد، وتلاحظ أن هذا جواب للقسم، الله أقسم على هذا الأمر. هذا إشارة إلى أن هذا أمر مهم، وأمر عظيم، ويحتاج للاهتمام.

ما هو هذا الأمر؟ أن الإنسان خُلِق في كَبد. وهنا سنفكر كيف تنفعنا هذه الصفة -أن الإنسان خُلِق في كَبد- في حياتنا؟ كيف نفقه نفسنا؟ أنا موجود هنا في الدنيا ولابد أن أعرف أن الدنيا ليست جنة، لا بد أن أفقه هذا الذي أنا فيه. فالإنسان يمرّ بأحوال وابتلاءات وصعاب، ويكابد في الحياة، وينفعل مع هذه الابتلاءات، يُبتلى بمرض، يُبتلى بضعف، بفقر، بفقد حبيب. من المؤكد أن هناك ردود أفعال، وأن النفس تنفعل. هذا الانفعال هو

الذي نريد أن نضبطه، هو الذي نريد أن نجعله سائرًا على ما ينبغي.

إذا ترك الناس أنفسهم تفعل ما تريد -سواء كان هذا بعقلهم، أو بآرائهم أو بعرفهم-، سترى تباينًا عظيمًا على حسب حال هذا الإنسان ونفسيته، لكن من رحمة الله أنه أرشدنا كيف نُزكي أنفسنا، وكيف نتصرف معها تصرفًا سليمًا؟ أولًا بتقرير هذه المعرفة. ما هي هذه المعرفة؟ أن الإنسان مخلوق في الكَبد، "في" تدل على أن الكبد محيط به، فلا تطلب من الدنيا شيئًا مخالفًا لحقيقتها.

قوله تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ)

كما هو مفهوم معناه أن الله يقسم إقسامًا مؤكدًا، ويُعظِّم هذا القسم. و (الْبَلَدِ) المُراد بها: مكة.

(وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ)

إشارة إلى النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ولها دلالات.

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

كل والد وكل ولد. ما العلاقة؟ فكأنه يُقال: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حِلّ بهذا البلد يا رسول الله، ويقع عليك الإيذاء من أهل هذه البلد، يعني يقسم الله -تعالى- بهذا البلد وقتما كان يُؤذى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في

هذا البلد، فيُقسم بمكة التي هي أعظم البلاد، وبحلول النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وهو أعظم العباد -وفي حالة إيذائه-، وهذه أعلى صور الابتلاء، في أشرف الأماكن.

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) يعني وابتلاء كل والد بما ولد.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ) كأنه يُقال لنا: الإنسان لا بد أن يُبتلى، إذا قلنا: (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)، معناه كل والد وولده، والإنسان في الحياة الدنيا يعيش معاناة، وأكثر صورة في المعاناة، المعاناة التي تحصل بين الوالد والولد. يُبتلى الإنسان بولده، وأيضًا يُبتلى الولد بوالده. يُبتلى الوالدان بطبع الولد، أو يُبتلى الولد بطبع والديه؛ ولذلك قال رسول الله: «إنَّ الولدَ مبخلةٌ مجبنةٌ»[14] يعني يكون سببًا في أن تكون جبانًا، وسببًا في أن تكون بخيلًا. وهذا سيكون مناسبًا جدًا عندما ندخل في الصورة ونصل لقوله تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)؛ لأن الولد سيمنعنا من بذل النفس وبذل المال، ولن يكون معينًا لنا على اقتحام العقبة، وبالعكس أيضًا.

إذًا هنا نتصور أن الله -عزّ وجلّ- أقسم بهذا البلد، وبالرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وهو يُؤذى في هذا البلد العظيم، ويخبرنا -عزّ وجلّ- عن أن الإنسان خُلِق

---

[14]() أخرجه ابن ماجه (3666).

في كَبد، وأن هذا الحال مستمر مع الإنسان، سواء كان له أهداف عظيمة أو له أهداف حقيرة. في كل الأحوال الإنسان في كَبد، الإنسان الذي له أهداف عظيمة سيُكابد، والذي له أهداف تافهة وحقيرة سيُكابد. وكما في الحديث: «كُلُّ النَّاسِ يَغدو فبايِعٌ نَفسَه فمُعتِقُها أو موبِقُها»[15] كل الناس مبتلون، سواء عمل للآخرة أو عمل للدنيا؛ ولذلك قد ذكر بعض أهل العلم: "إن قوله تعالى: (وَوَالِدٍ) يُقصد به إبراهيم -عليه السلام-، (وَمَا وَلَدَ) هو النبي -صلّى الله عليه وسلّم-." ويكون المعنى أن الحق سائر من إبراهيم -عليه السلام- إلى أن وصل النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وبُعث، وسيبقى الحق سائرًا.

أي أن إبراهيم -عليه السلام- غرس غرسة الحق في مكة، وبقيت غرسة الحق، وستبقى، مثلما نقول: "هذا مقام إبراهيم، الذي هو أثر أقدامه وهو يبني الكعبة" فكأنه يُقال: "هذا الجهد الذي يبذله الإنسان في نصرة الحق أو في القيام بمعالي الأمور يبقى أثره."

باختصار: خُلق الإنسان في كَبد، سواء كانت مقاصده عظيمة فهو في كَبد، أو كانت مقاصده تافهة فهو أيضًا في كَبد. فلا شيء تُحصِّله في الدنيا بدون معاناة ومشقة،

---

[15]() أخرجه مسلم: (223).

هذه طبيعة الدنيا! إذا كان في بلده فهو في كَبد، إذا سافر فهو في كَبد، إذا كان متزوجًا فهو في كَبد، إذا كان غير متزوج فهو في كَبد، إذا كان لديه أبناء فهو في كَبد، إذا لم يكن لديه أبناء فهو في كَبد. هذه حقيقة الحياة! فلا تحاول أن تهرب من الكَبد، هذا ليس حلًا. إذًا ما هو الحل؟ الحل واضح في السورة:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)

الحل ليس الهروب، وإنما الحل هو الاقتحام. طبيعتنا أننا نحاول قدر المستطاع أن نتحاشى الاقتحام، دائمًا نريد المساحات الآمنة، نريد أن نكون في منطقة الراحة.

ولا يمكنك أن تكون في منطقة الراحة، يجب أن تعرف نفسك وتعرف حقيقة الحياة. أنت تميل إلى الراحة، والدنيا ما خُلقت بهذه الطريقة ولا هذه طبيعتها. خُلقت عبارة عن مراحل كلها كَبد وصعوبات، فكل مرة تشعر فيها أنك متوتر، وتقول: "لماذا دائمًا هناك صعوبات؟" الجواب: نفسك التي تحب أن تكون في منطقة الراحة، قل لها: "لا بد أن تعرفي طبيعة الحياة، ويجب أن تعرفي مَن هو الله؛ لأنك لا يمكن أبدًا أن تكوني أيّتها النفس أُبتليتِ بشيء لا يمكنك أن تُكابدي فيه، لكنك لم تأخذي الأداة الجيدة للاقتحام."

سنضرب مثالًا من السنة، في الحديث عن عبد الله بن مسعود يحكي أنهم كانوا يغزون مع النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وليس لهم نساء -هم في سن الشباب، وهذه الحاجة معروفة- قال: «كُنَّا نَغزو مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ليس لَنا نِساءٌ، فقُلنا: ألا نَستَخصي؟»[16] بمعنى أنهم يريدون أن يقطعوا هذه الشهوة، يقطعونها بقطع الأداة، بحيث لا تتحرك هذه الشهوة في أنفسهم. فنهاهم النبي، قال: «فنَهانا عن ذلك» ليس الحل أن تأتي لكل مشكلة وتقطعها.

ومثلًا هؤلاء الجيران يفعلون كذا وكذا فنقاطعهم! وهؤلاء الأقرباء يفعلون كذا وكذا ولو زرتهم قد أعتدي عليهم، فأقاطعهم. لا يصح! بل أن تترقى خطوةً خطوة أحَبُّ عند الله من أن تنقطع؛ لأنه في الحديث قال رسول الله: «أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْومُها وإن قَلَّ»[17].

إذًا هذه هي النقطة الأساسية: أنني لا أريد أن أجتهد وأقتحم، أريد أن أضع نفسي في منطقة الراحة، فيُقال لك: "لقد خُلِق الإنسان في كَبد، وأنت لابد أن تُبتلى مهما كانت أهدافك." لو كانت أهدافك عالية ستُبتلى، ولو

---

[16] () أخرجه البخاري (5075).
[17] () أخرجه البخاري (6465).

كانت سُفلى ستُبتلى، لو كانت في شأنٍ خطيرٍ ستُبتلى، ولو كانت في شأنٍ سخيفٍ ستُبتلى. فاجعل شأنك عاليًا.

نضرب مثالًا: لو هناك أشخاص يريدون أن يسافروا للنزهة، هل لأنهم يريدون أن يتنزَّهوا سيجدون الأرض مفروشةً بالورد؟! الجواب: أنهم سيجدون مُكابدةً في خروجهم وفي دخولهم وفي عملهم وفي انتقالهم، والنبي قال: «السَّفرُ قِطعةٌ منَ العذابِ يمنَعُ أحدَكم طعامَه وشرابَه وثوبَه ونومَه»[18].

هنا نلاحظ هذا الشيء المهم: أن النفس تظن أنها لو تركت معالي الأمور ستكون مرتاحة، ويُقال لها: "لا أبدًا، فإن معالي الأمور مثل سفاسف الأمور، لا يمكنك تحصيل شيء إلّا وأنت تُكابِد."

مثال بسيط في العلاقات الإنسانية: هذه أم ولها أبناء قد تفرّقوا في بيوتهم، وأصبح لكل واحد منهم أُسرة، فهي تحب اجتماعهم عندها، فهم يؤنسونها، فيأتون هم وأبناءهم وأزواجهم، فتجد كَبدًا في خدمتهم وفي اجتماعهم في بيتها، يمكن أن نقول: "إنها تجد إزعاجًا وإنفاقًا" هذه الأمور المعروفة عند الناس. فتستجيب لنفسها وتقول لهم: "أنا لا أريد أن يؤنسني أحد، فليبقى كل ولد في بيته!" ثم لا يحول الأسبوع ويأتي موعدهم

---

[18]() أخرجه البخاري (1804).

إلّا وتجد في نفسها شوقًا لهم! فترى أنها يجب أن تصبر على الكَبد في مقابل أن تجد الأُنس.

وهذه هي حياة الإنسان، أينما اتجه وجد الكَبد. فيجب أن تفهم نفسك، أن الذي يمنعك من أن تطلب معالي الأمور هو شعورك بأن سفاسفها منطقة راحة، وأنت تميل إلى الراحة والكسل؛ ولذلك إذا أردت أن تعرف نفسك فاذهب إلى الأدعية النبوية، وانظر كيف استعاذ النبي من الكسل. إشارةً إلى أن الكسل من الصفات النفسية. فكن شجاعًا واقتحم العقبة!

بقي في هذه السورة ما نحتاج أن نتكلم عنه في الصفات الإنسانية، لكنها كانت كالنموذج في هذا اللقاء.

بإذن الله نُوفَّق في اللقاء القادم إلى فهم أعمق لدلالات هذه السورة على النفس الإنسانية. والحمد لله رب العالمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته